المصادر المحلية لتاريخ المملكة العربية السعودية

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر(*)

دأبت على تفادي إلقاء محاضرات عامة، فلم أُلْقِ في حياتي محاضرة عامة على جمع إلا في النادر، ولم أكن لهذا النادر مختاراً، ما عدا محاضراتي في الجامعة على عدد محدد من الطلاب، في فصل من فصول الكلية، وفقاً لمنهج معين مرسوم .

والسبب في عدم تحمسي لإلقاء محاضرات عامة هو أنني أجزم - مهما كانت معرفتي بما أتحدث عنه - بأن من بين المستمعين من هو مثلي في هذا الأمر، ولهذا فلا فائدة له من محاضرتي إياه عن ما لا يزيد في علمَه شيئاً؛ أو بأن من بينهم من هو أعلمُ مني، وعلى هذا فأولى بي أن أستمع إليه، لا أن أُسمعه، وهذا يجعلني أستحيي أن أبدو في حديثي مُنَقِصاً لحقه، أو مقللاً لقدره، أو متجاهلاً لمقامه؛ لأن في هذا ما يدخلني نطاق سوء الأدب؛ أما إذا كان من بينهم من هو أقلُّ مني، فقد شالت كفته مع رجحان كفة القسمين السابقَين .

ولم أختر في هذا المقام أن أحاضر، ولكنها رغبة زميل عزيز،

(*) ألقيت هذه المحاضرة في يوم السبت ١٤١٨/١/٢٥هـ الموافق ١٩٩٧/٥/٣١م، ضمن الموسم الثقافي لدارة الملك عبدالعزيز : ١٤١٨هـ .

وإخوان أعزاء، أحسن الجميع الظن بي، فليسمحوا لي أن أحمِّلَهم وزر تقصيري؛ لأني أعرف يقيناً أن في الميدان الذي سوف أتكلم عنه من هو أكثرُ مني علماً، وأعمق بحثاً، وألصق صلة، وأكثر دأباً، وأقصى متابعة، وأوفر وقتاً، وأحدث اطلاعاً؛ لانقطاعه إلى حد كبير لدراسة هذا التخصص، ومراقبة ما يجد فيه، ولعله لم يُخْتَر لهذا الموضوع؛ لأن نصيبه في هذه السلسلة من الكلمات بحث تاريخي ثان، في جانب آخر؛ ومن أشير إليهم هنا كثيرون، أخص منهم من قاموا بدراسات علمية متعمقة، وبحوث مستقصية، وهم أساتذة في جامعاتنا، تهيأت لهم سبل الإبداع، فسلكوها، وأُتيحت لهم إمكانات البحث، فاستغلوها، ولن أتعرض لذكر أسمائهم، أو نتائج عملهم، أو استقصاء دراساتهم، لأنهم معروفون للعاملين في هذا الحقل، وإنتاجهم ملء السمع والبصر .

يبقى بعد هذا أن أعرض عليكم فقط ما أعرفه عن المصادر، وما أعرفه عنها محدود، وليس لي فيه إلا طريقة العرض، واختيارُ الزوايا التي ألمس منها جوانب الموضوع، وسيكون لملحوظاتهم بعد ذلك ما سوف يسد الثغرات، التي قد تحتاج إلى ملء نتيجة ضيق وقت البحث، أو السهو، أو الوهم .

والعنوان المقترح ذو شقين :

الأول : المصادر المحلية لتاريخ المملكة العربية السعودية، وحصر هذا الأمر في المصادر المحلية جعل المهمة من بعض النواحي أسهلَ مما لو أطلق الأمر، تشمل المصادر غير المحلية، وهي متنوعة، ومتشعبة، وكثير منها ما يزال يحميه ضباب كثيف من نوع أو آخر، كل نوع منها ستار حاجب؛ فالجهل بأماكن

المصادر العلمية ستار، وعدمُ السماح بالاطلاع على ما هو معروف منها ستار، واللغة أحياناً ستار .

أما المصادر المحلية فقد خدمت - إلى حد ما - خدمةً تتناسب مع همة المسهمين في ذلك، ومقدرةِ الباحثين عنها، وتبصُّرِ الدارسين لها؛ وتكاد أهم المصادر المحلية تنحصر في الأمور الآتية :

١ - كتب مخطوطة عما قَبْل الدولة السعودية، أو عن الدولة السعودية الأولى، أو عن الثانية؛ أو كتب بحثت في التاريخ والجغرافيا والأنساب، وركزت على منطقةٍ بعينها، أو فترة بذاتها؛ وقد طُبع بعض هذه المخطوطات، مرةً أو أكثر من مرة؛ ومن بين هذه الكتب ما أصبح من أول المطبوعات التي أمكن أن يتداولها متابعو تاريخنا الحديث، وأضحت في أيدي الناس، وسدت فراغاً شاسعاً، واستوعبها القارئ، وكتب عنها من كان مهتماً بالتاريخ لهذه الحقبة؛ وعلق هؤلاء على بعض ما جاء فيها، وفُحصت من قبل بعض الدارسين في أثناء دراستهم لهذه الفترة؛ ولا تكاد الفائدة المستقاة منها تُحصر؛ أما المعلومات المدونة فيها فأساس من أسس دراسة تاريخ هذه الفترة في الجزيرة العربية، ما وُثِّق، وما لم يوثق .

٢ - ثم تلت ذلك فترة، أُلتُفت فيها إلى بعض المخطوطات المكملة لما سبق أن طبع، وقد تكون سابقة لها في الزمن، أو معاصرة، أو لاحقة، ولكنها تساويها، أو تزيد عنها في الأهمية والاعتبار؛ لأنها تضيف معلومات مهمة، للتأكيد أو الترجيح أو التصحيح أو النقض .

٣ - وهناك مخطوطات مهمة عن فترة تاريخية متقدمة، لم تصل

إلينا، ولكنها ذكرت في كتب دارسين متأخرين، استقى منها مؤرخون قدامى، أو أشاروا إليها. وبعضها عثر عليه، وبعضها لم يعثر عليه؛ وأمكن أن يستدل على زمنها بمعرفة زمن وفاة مؤلفها؛ ومنها ما هو قليل الصفحات، حتى إن بعضها لم يزد عن خمس ورقات .

٤ – وهناك كتب ما تزال مخطوطة، وأهميتها محدودة، لتأخر زمن مؤلفيها، وكثرة نقلهم من غيرهم، أو نقلهم من صحف معاصرة؛ ولعل هذا من أسباب عدم العناية بها، وتحقيقها، وطبعها؛ مع أن هذا لو تم لأفاد؛ لأنه إن خلي من معلومات فلا يخلو من معرفة رأي المؤلف في بعض الأمور، التي عاصرها أو لحق في زمنه على من عاصرها، فأخذ منه .

٥ – ومن المصادر المهمة الوثائق الحكومية الرسمية، والوثائق الخاصة لدى الأفراد، مما يحمل معلومات متشعبة، ربما لا توجد في غير مظانها؛ وبعض هذه الوثائق اقتضت طبيعتُهُ نشره، وبعضه ما يزال ينتظر العناية به، وترتيبَه وتبويبَه، وإتاحةَ الاطلاع عليه من قبل الدارسين. ومما يحضرني عن أهمية الوثائق الخاصة ما حصلت عليه جامعة الملك سعود من خطابات جاءت ضمن ما اشترته من مكتبة الشيخ سليمان الصنيع، رحمه الله .

٦ – ومن بين المصادر المفيدة ما يوجد من خطابات ومراسلات، صادرة من داخل الجزيرة، استقرت في نهاية الأمر في بعض المراكز خارج المملكة، وأهم هذه المراكز :

أ – دار الوثائق القومية في القاهرة.

ب - المكتبات الرسمية في إسطنبول .

ج - مكتب شؤون الهند (بلندن) .

د - وزارة الخارجية البريطانية ممثلة في مكتب الوثائق هناك .

هـ - ما قد يكون اقتُبس من وثائق أو خطابات، أو صور في كتب الرحالة الأجانب الذين زاروا الجزيرة .

٧ - دراسات حديثة، تعد أساساً لما اشتملت عليه من موضوعات ومعلومات لم يسبق تدوينها عن فترة متأخرة، أو معلومات صححت مفهوماً خاطئاً، أو أدخلت تنظيماً في المنهج أو الخطة، أو حللت جوانب معينة؛ وتركزت بعض الكتابات على تاريخ الملك عبدالعزيز - رحمه الله - أو ما يوصل إليه. وهذه الفئة من المصادر كثيرة، نسبة إلى فترة نشاط تأليفها؛ وميزتها أنها اعتمدت في بعض الجوانب على وثائق لم تنشر من قبل، مما يجعلها بهذا ترقى إلى أهمية المصادر .

٨ - وهناك من وثائق التاريخ ما طبع من كتيبات عن أحداث سياسية منقطعة، أرادت بها الدولة تبيان الحقيقة في موقفها من بعض الأحداث، وأقرب مثال : الكتاب الأخضر الذي صدر عن مؤتمر الكويت لتحديد الحدود بين المملكة العربية السعودية والعراق والأردن في عام ١٣٤٢هـ/١٩٢٣-١٩٢٤م .

٩ - المعلومات التي أدلى بها بعض من عاصروا حوادث مهمة في تاريخ المملكة الحديث، أو شاركوا فيها، ومع ما دُوِّنَ من ذلك تأتي روايات شفهية جاءت عرضاً، أو بمناسبة من المناسبات؛ وقد جاء من ذلك ثمار يانعة، غذت التاريخ بحقائق رئيسة،

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٢١هـ، السنة السادسة والعشرون
الدارة

إن لم تضف معلومات جديدة، فإنها أسهمت في إقامة جوانب في تكملة صورة مسرح الأحداث. ومن جملة هذه الجهود ما قام بتدوينه القسم الثقافي بالحرس الوطني، فقد قابل عدداً من الرجال المسنين، ممن عاصروا الملك عبدالعزيز، وشاهدوا بناء المملكة العربية السعودية الحديثة، أو أسهموا بطريق أو آخر، في أداء واجبهم تجاهها .

وقد تكونت من هذا معلوماتٌ ثرة، لمست جوانب متعددة من الحياة في بدء حكم الملك عبدالعزيز، وما سار عليه، منها ما هو سياسي، ومنها ما هو حربي، ومنها ما هو اجتماعي، ومنها ما هو اقتصادي، ومنها ما هو داخلي، ومنها ما هو خارجي، وربما حددت عرضاً بعضَ معالم سياسة الحكم والإدارة، وجهود التنظيم، ووَضْعَ الأسس، ونجاحَ التوحيد الإداري بين المناطق، وغير ذلك، مما أصبح موثقاً بتواتر المعلومات من مصادر مختلفة .

١٠ - المراسلاتِ بين الحكام الإداريين والسلطة المركزية، ومجموعٌ من هذه المراسلات تزخر به الدوائر المختصة، وبعضها قد يكون من السهل الاستفادة منه للتاريخ، وبعضها ينتظر تنظيماً، عن طريقه يُحَدَّد ما يمكن أن يتاح للاستفادة منه عن طريق إشاعته ونشره، أو الاطلاع عليه اطلاعاً تحكمه حدود، لما لا يزال له من سرية أهميتها قائمة .

١١ - مراسلاتِ بين أفراد لهم أهميتهم من رجال الملك عبدالعزيز، قاموا ببعض المهمات التي كلفوا بها من قِبله، أو من قِبل أحد رجاله المعنيين، وقام بأداء المهمة شخص بعينه، واحتفظ المُرسَل إليه بهذه الخطابات؛ وأذكر مثلاً لهذا

إبراهيم النشمي - رحمه الله - وما لديه من خطابات من الملك عبدالعزيز - رحمه الله - يأمره فيها بالقيام بعمل معين، وقد قدَّم إبراهيم - رحمه الله - في يوم من الأيام صوراً من بعض هذه الخطابات لديوان الخدمة المدنية، ولعلها ما تزال في ملفه إلى هذا اليوم، قدمها لأنها وثائق ترسم حدود عمله، وبعضُه حربي، وتحدد زمنَه ونوعَه وحجمَه .

١٢ - خطاباتٍ بين أصحاب مهن مختلفة، وبينهم وبين الحاكم، وفيها منً المعلومات ما لا يمكن تحديد فائدته الضافية لتقرير النواحي الاقتصادية في بعض الفترات في أثناء بعض الظروف، سواء كان ذلك في مجال الأسعار، كما في حال التُّجَّار، أو أنواعِ السلع، والحاجةِ إليها، أو طرق التوريد ووسائلِه، أو التصديرِ ونوعهِ، أو سائِرِ سبل التجارة، من مسالكَ وموانئ، وطرق النقل .

١٣ - الصحف وما في حكمها مصدر مهم، لما فيها من سجل منتظم للحوادث، فهي من هذا الجانب، لا يُستغنى عنها، ولا يكمل الأمر إلا بها .

وبجانب ما ينشر في الصحف من أخبار الوقت، وما يكتب من بيانات رسمية، وما يرصد من وثائق مختلفة، وما يكتبه أفراد اجتهاداً من آراء وما يبدونه من أفكار، فقد خطت بعض الصحف خطوة تعد أساساً في التاريخ، وعملاً مباشراً فيه لهذه الحقبة، إذ عمدت إلى استضافة بعض كبار السن ممن عاصروا قيام المملكة، أو شاركوا في نشاط من أنواع النشاط الذي واكب قيامها؛ فكان لانطلاق المتحدث على

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٢١هـ السنة السادسة والعشرون
الدارة

طبيعته وإعطائه العنان لسجيته أثر في قبول ما يأتي به من معلومات. يظهر أثرها قوة وضعفاً عند مقارنتها بغيرها، ويتقرر الاعتماد عليها كما جاءت، أو بعد أن تتعرض للفحص والتمحيص .

واختلاف الجهات التي يأتي منها هؤلاء الأفراد، وتباين الحقول التي يطرقونها، وانطلاقهم في الحديث عن الأعمال التي كانوا يقومون بها، والزوايا التي يدخلون منها، أو يُدخِلُهم السائل منها، تقرب المعلومات من التكامل، وترسم صورة تدنو من الواقع والحقيقة .

١٤ - الشعر، ومنه الفصيح والعامي. والغالب على هذه الفترة هو الشعر العامي مما يجعل تاريخها السياسي والحربي، حتى لا تكاد قصيدة قيلت في ذلك الوقت تخلو من فائدة تاريخية، إن لم تكن عن الناحية العسكرية، فهي عن الناحية السياسية، أو الناحية الاجتماعية بأنواعها؛ ويصعب تجاهل ما جاء من حقائق فيما قيل من شعر عامي في القرن الهجري الماضي وسابقه، فهناك معلومات ثرة يمكن أن تسد ثغرات في تاريخ المنطقة .

ومن حسن الحظ أن كثيراً من الشعر العامي قد دُوِّن، وأصبح بين يدي الباحث؛ وقد يكون في فهم نصوص الشعر العامي صعوبة على بعض الدارسين المحدثين، إذا لم يكن قد شرح وفُسِّر، وكُشفت ألفاظه الغريبة، ومراميه البعيدة، وما أُبهِم فيه من قول، وما غَمَض من معنى. وقد طُبِع من هذا الشعر طبعات مختلفة كثيرة، فحمل المطبوعُ منه صوراً واضحة لحياة حافلة بالأحداث .

وربما لا تخرج دراسة الشعر العامي لغرض التاريخ عن دراسة السابقين للشعر الفصيح؛ فالمداخل واحدة، والصور واحدة، والمرامي واحدة، والروح واحدة؛ وتكاد تكون الفوائد واحدة، والعيوب واحدة؛ فالفوائد من الحقائق والصور محققة، والعيوب يمكن رؤيتها في التناحر القبلي، والصراع العشائري، وفيما بين المدن من تنافس، وفيما بين المناطق من تناحر، وما قد يشوب ذلك من مبالغات أدت إليها هذه العناصر .

هذه العيوب أسهمت في رسم غير الحقيقة، مما يتطلب من الباحث نباهة فائقة، ويقظة حذرة، ومعرفة تامة بما بين القبائل من صلات وتراث، وما بين بعض المدن والمجتمعات من منافسات.

وقد أجلت الحديث عن هذا المصدر عمداً ليكون آخر أنواع المصادر، لأهميته لتاريخ زمننا في الجزيرة، وما سبقه من زمن مباشر له .

ومن أبرز المحاولات الجادة الناجحة للاستفادة من الشعر العامي لدراسة التاريخ دراستان : إحداهما الدراسة التي قام بها الأخ الأستاذ الدكتور عبدالله بن صالح العثيمين، إذ كان الشعر العامي مصدراً رئيساً من مصادر أحد كتبه. وأرجو أن نرى منه المزيد، وأن يُحتذى عمله هذا، حتى لا يبقى بيتُ شعر فيه إثارة تاريخية تمت إلى زمننا وزمن آبائنا إلا استفيد منها قبولاً، أو رفضاً .

والدراسة الثانية تلك التي أقدم عليها الدكتور عبدالله الفوزان، وهي دراسة متأنية عن حميدان الشويعر، مبنية على شعره، وتوصل فيها إلى حقائق مهمة عن الشاعر وزمنه، ولعل

أحد الأسباب التي حدت به إلى هذه الدراسة، كثرةُ ما ذُكر عن حميدان من تهم لم تصمد أمام البحث .

وقد يكون هناك دراسات أخرى لم أطلع عليها، واهتمامي انصب على الدراسات التي أوقفت على بحث تاريخي. أما ما جاء خاصاً بالأدب وتاريخه، فلم أعده في هذا الجانب .

هذا هو الجانب الخاص بالمصادر في عنوان الحديث الذي اختاره الإخوان لهذه الكلمة، وقد اختصرت القول فيه ليتناسب مع الوقت، فاكتفيت ببعض الجوانب دون استقصاء لما يندرج تحت أنواع المصادر .

أما الجانب الآخر من العنوان فيخص العناية بالمصادر؛ ومظاهر العناية بالمصادر التاريخية المحلية متعددة :

أولها : السعي لمعرفة هذه المصادر في مظانها المختلفة، فبعضها يأتي عن طريق الرواية الشفهية، وبعضها عن طريق الإفصاح بذلك في الكتب التي يكتبها أصحابها، أو عن طريق إشارة آخرين إليها في كتبهم أو مقالاتهم؛ والجهد الذي يبذل في هذا المجال يختلف بمقدار قوة الإشارة أو ضعفها، ففرق أن يقال في كتاب : سمعت أن فلانا ألف كتاباً عن كذا، أو في كذا، أو أن يقال : اطلعت على كتاب ألفه فلان في كذا، جاء فيه قوله ... إلخ .

وثانيها : أماكن وجود المصادر وتحديدها. وهذه خطوة مهمة؛ لأنها إذا عُرفت تُوَفِّر على الباحث المتأخر جهداً، ووقتاً، وتنير له الطريق، للوصول إلى المكان، أو المكتبة التي فيها المصدر؛ ومعرفة ما إذا كانت من المكتبات القديمة، ذات الإمكانات المحددة، مما يستوجب السفر إليها، أو تكليف من

يقوم بنقل النص المطلوب؛ أو كانت من المكتبات الحديثة ذات الإمكانات المتقدمة التي يكفي معها أن يطلب صورة ترسل بإحدى الطرق الحديثة .

والمكتبات الآن في تقدم مستمر فيما يؤدي إلى خدمة الباحث، ومساعدته في تقليل الجهد، واختصار الوقت، ووفاء العمل، وحسن النتيجة .

وثالثها : محاولة الربط بين المصادر في حال وجودها متكاملة أو ناقصة، وتحديد أماكن كل فئة منها؛ وقد يضاف إلى هذا الجهد معرفة الأقدم منها، وما هو المصدر المستِقي، والمصدر المستقَى منه، مع تحديد تواريخ الكتابة والنسخ، ودرجة الثقة في الناسخ وزمنه؛ وهذا جزء يدخل في دراسة المصدر.

أما بقية الدراسة فتأتي في العنصر الرابع :

وهو دراسة كل مصدر دراسة وافية تبين ما تميز به، وما فيه من جديد، إضافة إلى ما هو معروف، أو نقضاً له، أو تعديلاً لما فيه. وهذه الأمور بعد الدراسة تحدد قوة المصدر أو ضعفه، وهذا يقرر مدى الاعتماد عليه .

وتدخل في هذا العنصر معرفة مصادر المؤلف المكتوبة، أو الجهات التي استقى منها مشافهة، أو أنه اقتبس مما هو مدون، مع تحديد مدى الاعتماد عليه، أو إغفاله له، أو الأخذ منه بحذر، وتدخل كذلك معرفة دور المؤلف أو الراوي في نقد ما استقاه، ونظرتِه إليه، وقرارِه النهائي عنه .

وخامسها : بعد أن يتبين النقص في مصدر من مصدرين متشابهين أو في كليهما، يأتي السعي لإيجاد الربط بين



الناقصين، ليُكَمِّل أحدهما الآخر، أو يصححه، وهذه خطوة مهمة في العناية بالمصادر. والجهد هنا ربما لا يكون سهلاً، خاصة إذا كان السعي للتصحيح، أو التأكد من المعلومات سوف يلمس نصوصاً مُفَرَّقة في كتب عديدة، بعضها ربما لا يكون في التخصص نفسه، ولكنه جاء عرضاً؛ فقد يكون المصدر المدروس تاريخاً، والنص المقارن، أو المصحح به جاء في كتاب في تاريخ الأدب، كأن يكون خطبة ترسم سياسة، جاء بها الأديب لقيمتها البلاغية، واحتاج المؤرخ إلى نصها، لما فيها من مرام سياسية، أو عسكرية .

وسادسها : تحقيق المصادر، وشرح نصوصها. وأهمية هذا العنصر تأتي من أنه يُقَرب المصدر من التناول من قِبل الباحثين والدارسين، ويسهِّل عليهم الرجوع إليه، خاصة إذا نشر .

والخدمة المتكاملة للمصدر في التحقيق والشرح والتعليق تسهم ليس في سهولة البحث ودقته فقط، ولكنها تسهم كذلك في التشجيع على الإقدام على خدمة الفترة التي تدور حولها معلومات المصدر .

وسابعها : وضع الفهارس المتعددة وترتيبها. وعلى الرغم من أن الفهارس قد تُعد ضمن مرحلة التحقيق والنشر، إلا أني مع الذين يفضلون أن يفرد لها في الحديث عنصر يختص بها وحدها، للأهمية التي يجب أن تعطى لها؛ فالفهارس هي المخطط أو الخريطة التي عن طريقها يستطيع الباحث أو القارئ، أن يهتدي بسهولة إلى ما يريد أن يصل إليه، بدءاً، أو عودة .

وبدون الفهارس فالناظر في المصدر كالسائر في دوٍّ العلامات

فيه غير مواتية، وكلما تنوعت الفهارس دل هذا على زيادة في العناية، ينتج عنها إراحة القارئ أو الباحث، واختصار الوقت، والتحبيب إلى هذا المصدر، والتشجيع للرجوع إليه .

وإذا حاولنا أن نزن مدى عنايتنا بمصادر تاريخنا، نجد أن أحد المقاييس الدقيقة الصادقة، هو وجود فهارس منوعة ومتقنة؛ لأنها كلما اتصفت بهاتين الصفتين، أبرأت الذمة في حق المصادر، وأكدت أنه قد بُذِل فيها المستطاع من العناية والرعاية، والالتفات، وأداء حق العلم والمعرفة .

وأود أن أقف هنا، وأضم صوتي إلى من يحذِّر المؤرخ من أن يقع هو، أو محقق المخطوطات، أو أي مؤلف تحت سلطة الناشر أو الطابع؛ فالناشر والطابع في بعض الأحيان يبحثان عن الكسب المادي، واتباع السبل المريحة لهما، ولا يلامان على هذا؛ ولكن على المؤلف أو المحقق أن يتدخل في كل أمر يخص الطباعة، فيحدد شكل الكتاب، وحجمه، وعدد الأسطر في الصفحة، وعدد الكلمات في السطر الواحد، وحجم الحرف، ومساحة الهامش والحاشية، ليشعر القارئ أن المؤلف أو المحقق لم ينسياه، وهيآ له كلَّ أسباب القراءة الممتعة، والاطلاع على المنهج، وأبعدا عنه ما يزهده في القراءة. واحترامُ عقل القارئ يسهم كثيراً في قبول الكتاب، أو العزوف عنه .

وثامنها : فحص نصوص المصدر فحصًا دقيقًا، نصًا نصًا. ويجب ألا يظن أن هذا متداخل مع بعض ما سبق من عناصر العناية؛ لأن هذا يأتي تابعًا لما سبق أن اتُّخذ على المصدر التاريخي؛ والفحص التام الدقيق يقرر مدى بقاء النص لما وجد له، أو وجوب تجاهُلِه، ويوجد الثقة فيه، أو يهدمها .

ولا يُسقِط المصدر، أو يُلغي الاستفادة منه، ما يبقى منه بعض الفحص والتدقيق، نتيجة إبعاد ما يظن أنه تزوير، أو خلط، أو وهم، أو تداخل، أعمى عنه بعض بريق العاطفة التي كانت تسيطر على كاتبه، من حب في المفاخرة، أو رضى عن فئة، أو غضب من فئة. وهذه هي بعض أنواع السوس التي تنخر في كيان مصادر التاريخ والأدب، وغيرهما، والتي كثيراً ما عانى الباحثون والدارسون منها عند محاولة التمييز بين مختلف النصوص .

ولكثرة الوضع في التاريخ، وسهولة ذلك، لطبيعة التدوين في هذا الحقل، أقر المؤرخون المحدثون أنفسهم أنهم يسيرون في حقل من الشوك، يعوق سيرهم، ويحد من انطلاقهم في عملهم؛ والأسباب للنحل والوضع كثيرة، وليس هذا مجال الإسهاب فيها، ونكتفي بالإشارة العابرة التي مرت، ولكن هناك مثلٌ طريف يحسن نقله هنا :

كان هناك مناظرة في قسم التاريخ - في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن في أواخر الخمسينيات الميلادية -- وكان عنوان المناظرة :

" التاريخ عبث، أو غش وخداع " "History is humbu"

ومعنى هذا أنه لا يُعتمد عليه. وأحد أساتذة التاريخ الكبار أخذ جانب مهاجمة التاريخ، وعضد العنوان، ودلل على رأيه، ومن جملة ما دلل به القصة الآتية :

تقابل في أحد العصور جيشان : ألماني وفرنسي، وتقاتلا قتالاً عنيفاً، وانتصر الألماني انتصاراً ساحقاً، وانهزم الفرنسي انهزاماً ذريعاً؛ وعاد الجيش الألماني بالأسرى والغنائم، وبقي القائد الفرنسي يلملم فلول جيشه؛ فلما انتظم عقد الجند الفرنسيين،

نادى قائد الجيش الفرنسي ضارب البوق، وقال له : اعزف موسيقا النصر !

فظهرت الدهشة على وجه عازف البوق، وعلى وجوه ضباط الجيش الفرنسي، وتساءلوا : أي نصر ونحن مهزومون ؟!

قال قائد الجيش بأنفة وشموخ : هذا العزف للتاريخ .

وعنى بهذا أن الباحث عندما يرى في التاريخ أن بوق النصر قد عُزف، فلا بد أن هناك نصراً، وسوف تتناطح التواريخ، وكل مؤرخ يدعي لجانبه النصر، وتضيع الحقيقة في خضم التزوير .

كم في التواريخ التي بين أيدينا من موسيقا نصر من هذا النوع، وكم جهد سوف يبذل، لتُجلَى الحقيقة، ويظهر أدعيها، بعد أن غطاها غبار الوضع قروناً وقروناً. ؟!

نعود إلى العناصر التي عددناها، فإذا أخذنا هذه العناصر التي يستدل منها على مدى العناية من عدمها، نجد أن تاريخنا المحلي مر بكل هذه العوامل، فمنه ما استكملت فيه جوانب العناية، ومنه ما لمست العناية بعضه، ومنه ما لا يزال ينتظر الالتفاتة .

ويحكم هذا أمور مختلفة، في مقدمتها حاجة الدارس في بحثه إلى بعض المراجع الرئيسة أو الفرعية، مما يؤدي إلى الالتفات إلى هذا المصدر من المصادر، أو ذاك والعناية به؛ والباحث بعد استفادته من مصدر من المصادر التي قامت عليها دراسة من الدراسات التي اهتم بها، يجد أن من السهل عليه فيما بعد أن يعتني بهذا المصدر الذي استفاد منه، وبذل فيه جهداً، ولم يبق لتحقيقه ونشره وإشاعته إلا جهد قليل؛ وكأن التأدب مع المصادر المستفاد منها يوجب لها حقاً على الدارس، فقد أسدت له معروفاً، وهي مخطوطة، وعليه أن يرد لها هذا



الجميل الضافي، ورد المعروف هنا هو في تحقيقها ونشرها .

وهذه هي سمة بعض المصادر التي نشرت مؤخراً، خاصة من قِبل حاملي الدكتوراه. أما ما سبق هذه العناية التي هذه صفتها، فلعل عوامل العناية المحدودة - وقد اقتصرت على الطبع فقط - جاءت إما لغرض تجاري، أو لالتصاق ثقافي بين المخطوط وقارئ من القراء، رأى في طبع المصدر فائدة واضحة له ولأمثاله .

والخطوات الثابتة المنتظمة في رعاية المصادر التاريخية المحلية، جاءت من أصحاب الرسائل الجامعية، فهؤلاء توجهوا مؤخراً للعناية بهذا الاتجاه عن علم وبفهم متكامل، وتخصصهم يبقى هو العامل الأساس في توافرهم على هذا المنهج، واتباع هذه الخطط الموصلة؛ حتى المؤسسات العلمية عندما تقرر نشر مخطوط، أو تأليف كتاب، فإنها تجد في أصحاب الرسائل الجامعية بغيتها فيهم هم أو من يماثلهم في علمهم وتخصصهم .

وإذا كان المتخصصون العلميون من السعوديين المؤهلين في الماضي قلائل فهم ليسوا كذلك اليوم؛ ولهذا فنحن نتطلع إلى أن ما لم يُخدم حتى الآن، ولم يُعتن به، سوف تكون له الالتفاتة صادقة، حتى لا يبقى مصدر إلا وقد أخذ حقه من الدراسة والتحقيق والنشر؛ ليتفرغ العلماء والباحثون للتحليل والاستنباط.

وقد تكون الالتفاتة إلى ما هو معروف اليوم أسهل من البحث عما قد يكون مُؤلَّفاً مجهولاً، ولكن الاستقصاء لأمثال هذه المصادر الشاردة سوف يكون مجال تحدٍّ للجيل القائم من العلماء، والجيل القادم، وبخاصة أن الإمكانات الحديثة اليوم سهلت كثيراً مما كان صعباً في الماضي، وساعدت على اختصار الجهد، وتقصير الطريق، وتوفير الوقت؛ وما على أحدنا اليوم

لشحذ الهمة إلا أن يتصور المؤرخين السابقين، وقد وضعت تحت تصرفهم هذه الإمكانات الحديثة : ماذا كان بإمكانهم أن يحققوا؟ وهم حققوا ما حققوا بإمكانات ساذجة محدودة .

بقي كلمة أخيرة أختم بها حديثي هذا، وهي عن أمر يشغل ذهني دائماً، ويشغل ذهن كثيرين، وهو أن بعض من في أيديهم مخطوطات موروثة، أو اشتروها، أو أهديت لهم، يصرّون على عضل هذه المخطوطات، فلا هم نشروها، ولا هم سمحوا للقادر على تحقيقها ونشرها .

والأمر في نظري جسيم، يُلحق بهذا العاضل إثماً؛ لأنه يحجب عن مؤلفها دعوة مخلصة يرفعها باحث مستفيد لمن كتب المخطوط، فأنحل جسمه بالسهر والتعب، وتعرض للحر والبرد، وحرم نفسه متع الحياة، وأرهق عينيه، وأدى بهما إلى الضعف أو العمى، بالكتابة على ضوء مصباح وقوده الودك، أو لحمته الشمع والزيت، رجا بعمله هذا وجه الله، وكلمةَ " جزاه الله خيراً "، يقولها مُقِرٌّ بالفضل .

لم يُضَحِّ كاتب المخطوط هذه التضحية، ويؤمِّل في عباد الله هذا الأمل، ليقبر كتابه في رفٍّ أو صندوق، ويبقى عرضة للتلف مع مرور الزمن، ومفاجآت الأيام. هذا بدون شك لا يرضي مؤلف المخطوط، وأقل درجات رضاه ممن وقع في يده مخطوطه - وهو حصيلة نور عينيه، وثمرة سني عمره، وعِوَضُه عن متعة الحياة التي زهد فيها - أن يتيح لكتابه أن ينتشر بين الناس .

فأرجو أن يهدي الله هؤلاء العاضلين إلى طريق الحق، وهو القادر على ذلك، والهادي إلى سبيل الرشاد .

الرياض ٢٥/١/١٤١٨هـ

المداخلات(١)

د. عبدالرحمن الشبيلي :

عندما استمعت إلى إلى هذه المحاضرة كنت أستعيد في ذاكرتي تلك المحاضرات الأولى التي تلقيتها شخصيا على يد أستاذنا الجليل المحاضر في مطلع الثمانينات الهجرية في جامعة الملك سعود. وعند سماعي للتنظيم الخاص بالوثائق كنت أتمنى إيجاد وسيلة للإفراج عن الوثائق السرية، كما كنت أتمنى من محاضرنا الإشارة إلى ما قامت به وسائل الإعلام كالصحافة مثلاً باعتبارها مصدراً للمعلومات التاريخية .

د. عبدالعزيز الخويطر :

حاولت أن أصف في هذه المحاضرة مظان الوثائق وأين توجد وكيف تصنف وأين هي ؟. أما ما يتعلق بما تحدثتم عنه خاصة ما يلمس بعض الوثائق من عناية لدى بعض الدول الأخرى، فإن المسألة بحاجة إلى وقت. ولقد سمحت تلك الدول بالاطلاع على وثائقها بعد مضي مئة سنة ثم صارت سبعين سنة ثم صارت خمسين سنة، وبعضها ثلاثين سنة، وبعضها أقل وربما أكثر. ولا أعتقد أنا وصلنا الآن إلى مرحلة ندعي فيها أن وضعنا يُمكّن من القيام بمثل هذا. كما أن مثل هذا المشروع يحتاج إلى خطوات طويلة منها تهيئة المكان ومنها تهيئة وسائل الحفظ، وأنا في الحقيقة ركزت على مظان هذه الوثائق.

أما الملحوظة الثانية فإن هذه المحاضرة لم تحدد بفترة محددة، إنما أعطيت رؤوس أقلام عن حالة المصادر الأولى؛ مصادر مخطوطة أمكن تحقيقها ونشرها ومصادر مخطوطة ذكرت ولا يعرف عنها شيء ومخطوطات قريبة العهد، وإنما لم يهتم بها، وقد يكون ذلك لقربها من

---

(١) تم تحرير هذه المداخلات من حيث الاختصار و اختيار أبرز ما ورد فيها وله علاقة مباشرة بموضوع المحاضرة.

المعاصرة واعتمادها على ما نشر في الصحف مثلا. ولم أرغب في الدخول في تفصيل الكتب؛ لأنه سيأخذ وقتاً طويلاً .

د. محمد آل زلفة :

بما أن الوثائق الأصلية مصدر أساساً لكتابة تاريخ المملكة العربية السعودية سؤالي هو: ما الدور الذي يجب أن تقوم به المؤسسات الحكومية لجمع الوثائق الرسمية للدولة السعودية، أي الوثائق الداخلية التي ما بقي منها حتى الآن هو في وضع لا يليق؟

نحن بحاجة ماسة إلى أرشيف وطني يجمع هذه الوثائق والجهود بدلا من تعرضها للتلف.

د. عبدالعزيز الخويطر :

نحن في سيرنا الحضاري الحديث نسلك طريقين؛ طريق نأتي فيه بأشياء غربية كما هي مثل السيارة وغيرها وليس عندنا ما يتواكب مع معطياتها الحضارية؛ والناحية الأخرى هي أنه لا يكفي أن نوجد مبنى للأرشيف الوطني فقط، بل نحتاج إلى متعلمين ومتخصصين يخدمون الباحثين ممن لهم حاجة بتلك الوثائق، ولكن أين من يرتب هذه الوثائق وأين من يبرمجها ويضعها ؟. أعرف أن هناك جهوداً مبذولة كبرى لإيجاد ما يجعل مثل هذه الوثائق في حرز أمين، ويفرز ما يتاح منها للبحث، وأعتقد أن ذلك يحتاج إلى وقت، ثم إن محاضرتي تضع علامات على مصادر تاريخنا الحديث فقط[1] .

(١) تقوم دارة الملك عبدالعزيز بالتنسيق مع المركز الوطني للمحفوظات بديوان رئاسة مجلس الوزراء بتصوير الوثائق الحكومية التاريخية وجمعها وتصنيفها والعناية بها وإتاحة المناسب منها للإطلاع حسب الإجراءات المتعارف عليها فنيًا وعلميًا. ويضم مركز الوثائق بالدارة مجموعة كبيرة من الوثائق الوطنية والعربية والأجنبية يمكن للباحثين الإفادة منها وإثراء تاريخ بلادنا بدراسات علمية أصيلة.



إبراهيم السماري :

التاريخ الشفوي مصدر من مصادر التاريخ بلا ريب ولكنه ذو طبيعة خاصة، وكنت أتمنى أن يدلنا المحاضر إلى الضوابط العلمية التي تستطيع أن تحمي هذا التاريخ من الطوام والآفات؟ والسؤال الثاني هو معلوم أن المصادر التاريخية تتأثر بالبيئة واتساع المملكة مما لا يجهل فما أثر هذا الاتساع على تنوع المصادر التاريخية؟

د. عبدالعزيز الخويطر :

من الصعب أن يكون هناك قواعد لتقويم الإفادة الشفوية فالمؤرخ والأمانة، والمقارنة تؤدي إلى المراد، والناحية الثانية هي أن المصادر إذا كانت مكتوبة فإنه لا يهم أن تكون في أي طرف من أطراف الجزيرة.

فائز الحربي :

سجلات المحاكم الشرعية وتكدسها ومدى الإفادة منها ؟

د. عبدالعزيز الخويطر :

أعتقد أن سجلات المحاكم الشرعية يمكن أن تكون من آخر الوثائق التي يرجع إليها؛ لأنها تتعلق بحالات أشخاص قد لا يعجبهم نشر أمر خاص بهم .

عبدالله الشهيل :

المصادر المحلية لتاريخ المملكة مهمة وبحاجة إلى عناية مثل وجود دار للوثائق وهناك من الكوادر القادرة على تحقيق ذلك السؤال هو :

مقولة تتردد : إن التاريخ السعودي لم يكتب بعد، فهل أنتم مع هذا الرأي ؟

د. عبدالعزيز الخويطر :

أنا مع الرأي بأنه كتب في التاريخ السعودي شيء مفيد جدا يغطي

كثيراً من الجوانب، لكن التاريخ لا ينتهي ودائما يحتاج إلى إضافات ولا أعتقد أن هناك تاريخاً لأي أمة يمكن القول بأنه كتب وانتهى.

سؤال من الحضور: يطلب موجز مختصر عن كتاب ابن بشر، وهل ما حققته دارة الملك عبدالعزيز يعد أفضل النسخ؟

د. عبدالعزيز الخويطر:

طبع كتاب ابن بشر عدة طبعات ولكن أوفى تلك الطبعات ما نشرته دارة الملك عبدالعزيز بتحقيق الشيخ عبالرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ الذي يعد تحقيقا مرضيا، وفيه جهد كبير، وبذل فيه مجهود جيد جدا، وسوف تعيد دارة الملك عبدالعزيز بمناسبة مرور مئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية تحقيقه وطبعه طباعة جديدة .

سؤال من الحضور: ما هي المصادر التي يعتمد عليها قبل القرن التاسع والعاشر الهجري ؟

د. عبدالعزيز الخويطر:

المعلومات عن مصادر ما قبل القرن التاسع والعاشر الهجري تكاد تكون معدومة إلا ما دونه الرحالة ناصر خسرو فإنه قد يكون الشيء الوحيد المتكامل عن رؤية واضحة لما كانت عليه نجد في ذلك الزمن إلا أنها لا تشفي غليل أحد، والتدوين لم يبدأ إلا من القرن العاشر. وما دونه ناصر خسرو لا يعدو أن يكون رؤوس أقلام .

سؤال من الحضور: إذا استجد قصائد شعبية أو فصيحة ألقاها شعراء في القرن التاسع والعاشر فهل هي جزء من تلك المصادر؟

د. عبدالعزيز الخويطر:

إذا وجد شعر فصيح أو عامي فإنه بلا شك من المصادر المهمة .

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثالث رجب ١٤٢١هـ، السنة السادسة والعشرون

